العرب
الأحد 2021/11/21
السنة 44 العدد 12247

لماذا يفشل الأدباء العرب في بلوغ العالمية

وسام دادة
كاتب تونسي

لماذا يصعب على أديب تونسي وعربي عموما بلوغ العالمية؟ هل الأمر متعلّق باللغة؟ أم أنّه متعلّق بضعف قدراتنا الإبداعية؟ أم أنّ الأمر يرجع إلى اهتماماتنا الأدبية الغارقة في المحليّة؟ أم أنّ قلّة القرّاء والمهتمين بالجانب الثقافي لتكوين الشخصية بالمقارنة مع الشعوب الأخرى واستهلاك حياتنا في مشاغلنا اليومية هو المانع عن الاحتفاء بالكتاب، ومن ثمّ يفقد الأديب الحافز الأساسي للإبداع، وهو غياب الجمهور المتلقّي المستعدّ لتقبّل أفكاره فتنحسر أعماله ويقلّ تأثيره؟

أعتقد أنّ السبب الرئيسي في عدم بلوغ كتّابنا وشعرائنا العالمية هو أنّ الشعوب الأخرى تبجّل الأدباء وتضعهم على قمّة الهرم في مجتمعاتهم، فرأيهم مسموع وتأثيرهم كبير في صنع الخيارات الوطنية لبلدانهم. إذ يكفي هناك أن تكون كاتبا حتى تخصّص لك الساعات الطويلة في البرامج المتنوّعة والصفحات العريضة في الصحف والمجلّات سواء كانت أدبية أو غيرها، وتفتح لك المؤسسات على اختلاف نشاطاتها، بكل اعتزاز أبوابها من أجل التقاط رؤيتك لبعض القضايا.

وفي الشارع يتوقّف الناس البسطاء للحديث معك ويقفون إجلالا لمكانتك ويسارعون في خدمتك بكلّ حبّ، تقديرا منهم لحافظي الذاكرة وناقلي التجربة الإنسانية. ألم يذكر الكاتب السويدي هنينغ مانكل أنه حين زار المدينة التي عاش فيها طفولته وشبابه "بوروس"، استوقف سيّارة أجرة فتعرّف عليه السائق فأبى أن يأخذ أجرته وظلّ واقفا أمام الفندق الذي يقيم فيه مانكل كل صباح لينتظره وينقله حيث يريد مجّانا، وبرغم اعتراض مانكل وبحثه عن سيّارات أجرة أخرى فإنه اكتشف أنّ جميع السوّاق الرابضين أمام الفندق قد اتّفقوا على نقله مجّانا فلم يجد بدّا من الانصياع إلى رغبة ذلك السائق البسيط.

كان بابلو نيرودا شاعر الشيلي الأول وحين تتمّ برمجة زيارة له إلى إحدى المقاطعات ليلقي قصائده، كان عمّال المناجم الذين لم يجلسوا يوما على مقاعد المدرسة، يفرضون على الشركات التي يعملون بها يوم عطلة من أجل حضور أمسية نيرودا، وحين تكون زيارته مفاجئة ويخطو إلي داخل مصنع للنسيج أو للنحاس، يتوقّف العمّال عن العمل وتتحوّل زيارة النقابي الشاعر إلى أمسية شعرية، يلتقطون ما استطاعوا من ألواح وهياكل معدنية وينصبون له منصّة في أحد المخازن ليستمعوا إلى شعره.

أعود إلى الأسئلة التي ذكرتها في المقدّمة، هل الأمر متعلّق باللغة؟ طبعا اللغة العربية ليست من اللغات الأكثر مقروئية في العالم رغم كوننا نفوق ما يزيد عن أربعمئة مليون نسمة. الإنجليزية والإسبانية هما اللغتان الأكثر إشعاعا في الأدب، وتتيحان لكلّ أديب جيّد انتشارا واسعا وشهرة عالمية.

ولكن كم عدد القراء الذين يقرؤون باليابانية، أليس هاروكي موراكامي وياسوناري كاواباتا ويكيو ميشيما من أعلام الأدب في العالم؟ كم عدد الناطقين بالبرتغالية، فكيف حظي بيسوا وساراماغو بتلك المكانة؟ والروسية والإيطالية والألمانية والسويدية والنرويجية، أليسوا أقلّ منّا تعدادا؟ كيف تفسّرون ما اكتسبه من منزلة رفيعة كلّ من البوسني إيفو أندريتش، والبلاروسية سفيتلانا ألكسيفيتش والبولونية أولغا توكارتشوك؟ لكم أن تتساءلوا كم عدد الكتّاب الذين يكتبون بالإنجليزية والإسبانية الحاصلين على جائزة نوبل مقارنة بغيرهم الذين يكتبون بلغات أخرى، لن تجدوا فرقا كبيرا.

> من الصعب أن نطالب العالم في الخارج بالاعتراف بأدبائنا وهم الذين فشلوا في أوطانهم في نيل الاعتراف

سوف تقولون أولئك ترجمت أعمالهم ولولا الترجمة لما نالوا اعترافا عالميا، ولكن هل كان لأديب ما انتشار واسع في العالم لم يسبقه اعتراف به في بلده أوّلا؟ ثم لماذا لا تترجم أعمالنا بنفس الطريقة، هل ذلك يعود إلى مستوى إنتاجنا الأدبي الذي لا يشجّع دور النشر العالمية والمترجمين المرموقين إلى نقلها إلى لغات مقروءة عالميا؟ ذلك يقودنا إلى السؤال الثاني في المقدّمة، هل أنّ عدم بلوغنا إلى العالمية متعلّق بضعف قدراتنا الإبداعية؟

قراءاتي الشخصية تنفي ذلك، فعديد من الكتّاب والشعراء التونسيين والعرب عموما، لو تمّت ترجمة أعمالهم إلى الإنجليزية أو الإسبانية أو الفرنسية أو غيرها لكانت تلك الكتب من درر الأدب في العالم. وبعض الأعمال هنا تتفوّق على الكثير من الأعمال العالمية. لو ترجمت أعمالنا لكانت محلّ إشادة من جمهور القرّاء في العالم، لكانت حُوّلت إلى أفلام شهيرة وعرضت في أرقى دور السينما في نيويورك وبرلين وباريس. ولا أخفي أنّ بعض الروايات التونسية والعربية التي قرأتها وجدت فيها متعة وجمالا لم أجدهما في روايات لفائزين بنوبل وهي أشد إتقانا من روايات فائزة بجوائز عالمية مرموقة أرّقتني كثيرا لأستطيع إنهاءها. ألم تفز رواية "سيّدات القمر" للروائية العمانية جوخة الحارثي بالمان البوكر الدولية وهي رواية عادية جدا في نسختها العربية.

يقول البعض إنّ كتّابنا وشعراءنا غارقون في مواضيع لا تتجاوز حدودنا الضيّقة، ولا يهتمّون بقضايا إنسانية جامعة ولا يبحثون في الأسئلة الحارقة التي تطرحها شعوب وحضارات أخرى إلا في ما ندر، تدور أفكارهم وثيمات كتاباتهم حول أحداث ومسائل محليّة لا يجد فيها القارئ غير التونسي أو غير العربي ما يشدّه فيها ولا تعبّر عنه في شيء. هذا قول مقبول نوعا ما ولكن ما هي القضايا التي تختلف جذورها ولا تنبت إلا في بيئة واحدة؟ أليست هموم الناس تقريبا واحدة في كل مكان في العالم، الوجود الإنساني أليس واحدا؟ والطبيعة البشرية أليست نفسها في تونس أو في الأرجنتين أو في الصين؟

متى كانت السياسة والدين والحبّ والجمال والعنف والتفكير في المستقبل خاصّة ببلد واحد فقط؟ أليس سلب الناس حقوقهم فعلا مشينا في كل المجتمعات، والاغتصاب والعنف والاتجار بالبشر والعنصرية دنيئا في كل مكان، والخيانة والخذلان وغياب المشاعر وفقدان الحبّ موجعا لكل شخص على هذه الأرض؟ إذن معالجة قضية ما في تونس هو معالجة لنفس القضية في جوهرها في أي بلد آخر؟

ألم نتعلّم أن النفس البشرية هشّة من دوستيوفسكي قبل أن تكتب روايات تونسية وعربية تصف لنا ذلك؟ ألم ندرك أنّ الحرب والقتل شرّ يهدد كل البشرية عندما قرأنا لتولستوي وسيلين ومندوثا؟ والسجن لدوافع سياسية وقمع المعارضين أرذل ما يمكن لنظام أن يرتكبه في حق الإنسان عندما قرأنا لليسكانو وغاليانو وسبولفيدا قبل أن نقرأ لعبدالرحمان منيف والطاهر بنجلون وعبدالجبار المدوري؟ وأنّ الدكتاتورية هي نفسها بشعة أينما بسطت نفوذها من "مزرعة الحيوان" و" 1984 لأورويل إلى روايات توفيق بن بريك؟

السؤال الأهم هو الأخير وهناك مربط الفرس، أين ذلك التبجيل والاقتناع أن بإمكان الأدب أن يغيّر، وأنّ الكتّاب هم أولئك الذين يقدّم البلد بهم صورة عنه، هم أولئك الذين يحتاج إليهم المعدم للحلم ومسلوب الإرادة للتفكير والذي قست عليه الحياة لزرع الأمل والسياسي للنهوض بالوطن والجاهل للتعلّم والضعيف ليستمدّ القوّة وفاقد الثقة ليستردّ الثقة والحزين لإيجاد الفرح ومكسور الخاطر لجبر روحه.

نحن نفتقد لذلك الاقتناع فيبقى تأثير كتّابنا محدودا، لا نرفع لهم القبّعة هنا فكيف يعترف بهم في الخارج وهم الذين فشلوا في أوطانهم في نيل الاعتراف، نستخفّ بهم فاستخف العالم بهم أيضا، لا نقرأ لهم ولا ندعوهم بالمعلّمين ولا نهتف بأسمائهم ولا نسمّي أبناءنا بأسمائهم ولا نكتشف أنفسنا عبرهم، صغّرنا منهم فصغّرهم المترجمون والنقّاد والجمهور في العالم، إذن كيف لهم أن يبلغوا العالمية؟

في ثلاثينات القرن الماضي حكم على طبيب إيطالي بالإعدام لمشاركته في توزيع منشورات تحريضية ضد النظام الفاشي. زوجة ذلك الطبيب لم تلجأ إلى المحامين ولا إلى السياسيين ولا إلى أصحاب الجاه لإنقاذ زوجها، إلى من تلجأ؟ لقد لجأت إلى كاتب، إلى الأديب النمساوي الكبير ستيفان زفايغ، لقد كان محبوبا في إيطاليا حتى من الدوتشي موسيليني. سافرت إليه والتقت به في منزله في سالسبورغ، وعدها بالمساعدة، أرسل رسالة عاجلة إلى موسيليني، وهل كان موسيليني يستمع إلى أحد؟ طلب منه العفو عن الطبيب وإطلاق سراحه، أجابه موسيليني، "بعظمة ما كتبت يا زفايغ سوف أسمح له بمغادرة التراب الإيطالي".

كم يقدر الكاتب على فعل أشياء لا يسع لغيره فعلها، لماذا؟ لأنّ تلك الزوجة المتواضعة آمنت به وبقدرته، لأنها تعرف أن للكاتب كلمة مسموعة.

في كتابه الرائع "السيرة الطائرة"، يحدثنا الروائي والشاعر الفلسطيني إبراهيم نصرالله عن زياراته المتعددة إلى عدّة دول، هل انبهر بالبناءات والطرقات، أم بالثروات المكدّسة، أم خفق قلبه من البؤس الذي رآه في بعض القرى والمدن؟ لا لقد أسره حبّ الناس للشعر وللأدب عموما.

في نابولي انتظمت أمسية شعرية في الجامعة، ألقى فيها نصرالله قصائد حول فلسطين بالعربية، الطلّاب الإيطاليون لا يفقهون العربية، ولكن حين أتمّ، تقدم طالب نحو المنصّة، أخذ ورقة وطلب من زملائه المرور الواحد تلو الآخر للإمضاء، بعد ذلك سلّم الورقة إلى نصرالله، ماذا كان في الورقة، لقد كتب ذلك الطالب سلاما حارّا لكل الفلسطينيين.

تلك هي قصّة العالمية في الأدب، فقط أن يكون الكاتب سيّدا عزيزا تكون اللحظات برفقته أثمن من المال والزمن والحياة أيضا، فقط حين ننتبه لذلك، سوف يكون لنا كتّاب عالميون.

الأديب العربي محتجز في محليته (لوحة للفنان بسيم الريس)

يوهموننا بأن التاريخ يعيد نفسه ثم يضعون الساعات في كل الساحات

كاهنة عباس
كاتبة تونسية

كيف يمكن لطقوس الولادة أن تكون متشابهة، والمولود شخص لن يوجد إلا مرة واحدة فقط في هذه الحياة، ألا يعني ذلك أنه لن يدرك الدنيا كما هي؟ كيف تتشابه طقوس الزواج والوفاة احتفالا بالعروسين، ثم بفراق من رحل عنا، بنفس الطريقة، أي باستقبال الأهل والأحباب بحفاوة وسخاء، ألا يعني ذلك أن اللقاء والوداع لا يختلفان في نظرنا؟

وأفكارنا القديمة، أليست حصيلة ما تعلمنا وما ورثنا، وما قيل لنا من حكايات حول الحقيقة؟ كيف الهروب من التكرار، ذلك الستار الذي ما انفك يحجب عنا كل تفرد ووجود، الرحيل إلى مكان بعيد لم تطأه قدم، يمنحنا اكتشاف الحياة خارج كل السجلات والدفاتر القديمة؟ هل يمكن ذلك، وقد تحولت الأمكنة إلى ذكريات لأحداث قديمة؟ كيف التطلع إلى الحرية وجل المعتقدات، جل الأقوال والمؤلفات، جل الحكايات تتشابه، جل الحكم تعاد علينا وكذلك جل التجارب وجل الرغبات؟

إننا جميعا ننتمي إلى الماضي، لم ندرك الحاضر أي الحياة إلا صدفة، نحلم بما كان وبما قيل، ونسمّي ذلك بالأجواء ثم نصفها بالعائلية، العاطفية، للتعبير عن حنيننا إلى بعض الأغاني والعطور والملابس والبنيان القديمة وكل ما اتصل بها من مشاعر.

إننا نحيا مع ما اندثر، نحاول جاهدين إعادة النظر في لغة مسيجة بألف قاعدة وقاعدة، أن نتأمل المكان الذي سمعنا عنه في ألف كتاب وكتاب، أن نعيش قصة حب، قننت أصولها بكل الطرق الممكنة والمستحيلة، فنحن لا نتخيل إلا ما كان، ولا نستعيد إلا ما سبق قوله، من منا قادر على إعادة النظر في رمزية النار أو الماء أو التراب أو الهواء؟

من منا خلق لنفسه أجواء خارج الطقوس المألوفة؟ من منا تصور الجمال على غير نماذجه المعروفة؟ أليست الثقافة سلسلة من الابتكارات والاختراعات المتواصلة التي تستمد طاقتها الإبداعية من القديم؟

لذلك كنت دائما أتساءل لماذا تعاد نفس الحروب، نفس الصراعات، نفس الروايات التاريخية؟ حتى أنهم أوهمونا بأن التاريخ يعيد نفسه ثم وضعوا الساعات في كل الساحات، ومنحوا الأيام والأعوام تسميات قديمة، حتى لا نسهو عن مرور الزمن.

فليس التاريخ هو من يعيد نفسه، بل اللغة بما تحمله من أوهام وتصورات وأسماء، إنها هي التي تعيد علينا كل ما حدث وما كان.

نحن إذن نعيش دائما في الماضي، وما دام الأمر كذلك، فلا يمكن لنا الاعتراف بحقيقة الموت أي بسنّة الفناء لأنها تقتضي منا أن نحيا حاضرنا.

> نحن ننتمي إلى الماضي ونعيش في زمنية مبتدعة لا تؤمن بوجود الحاضر أي بالحياة باعتبارها مغامرة عابرة ومتجددة

ألم ننتبه إلى أن النبض والتنفس، الحركتان الباعثتان للحياة، متصلتان بالحاضر؟

فهل نكون بذلك منفصلين وجدانيا وفكريا عن أجسادنا، لانخراطنا في فهم وتأويل مجموعة من الإشارات والعلامات الموروثة، حتى نتواصل مع العالم؟

بل حتى أسماؤنا هي أيضا قديمة وكذلك ألقابنا بما تحمله من حكايات حول انتمائنا، جميع الأنهج والطرق والمدن والقرى تحمل هي الأخرى أسماء قديمة، غالبا ما نجهل مصادرها، وما يحدث يوميا ألسنا نقرؤه من زاوية الماضي؟

لكن الماضي هو ما اضمحلّ وزال ولم يعد واقعا بل أضحى بقايا لمعنى أسديناه على ما حدث ثم امّحى، ألا يكون فكرة حلت محل الحاضر فأوهمتنا بوجودها، وبعثت فينا الشوق المستحيل لكل ما زال؟

نعيش إذن تحت طائلة حاضر مقنع بوجه الفناء وبعلامات تحاول أن تؤسس له معنى مستمرا، نعيش بنصف حياة تهرع من المغامرة والاكتشاف، تختفي وراء الأقنعة وتقمص الأدوار.

فهويتنا لم تتشكل من مشاعرنا وأحاسيسنا وانفعالاتنا الحاضرة أو الماضية بل من مجموع القصص والحكايات التي تبنيناها.

لذلك ما انفكت تلك الحكايات تتغير بمرور الأيام بعد استعادتها لحديث أجدادنا حول الإنسان والآخر والعالم، ماذا عسانا أن نضيف إليها؟ بصمة صغيرة لما كان.

لا شك أن "للماضوية" درجات، فمن الشعوب من يؤمن بها دون أدنى لبس بتقديسه للموروث الفكري، أخرى تؤمن بالاكتشاف والعقل لفك أسرار الطبيعة وخفاياها ومعرفة كل ما هو موجود ورؤيته كما هو، خارج كل الروايات والمعتقدات والأحكام المسبقة.

إنها الثقافات التي اهتمت بما هو "حادث" من فعل أو ظاهرة، فسخرت العقل كي يطرح كل الأسئلة وألا يلتزم بالحدود التي رسمتها المعارف القديمة.

إلا أن الحداثة كما سميت، لم تقطع مع التاريخ في تسلسله الزمني الخاضع للعدّ التصاعدي بداية من ميلاد المسيح، ومعنى ذلك أن التاريخ الإنساني في تطور مستمر، لا يمكن فهمه إلا بمعرفة القديم، فحتى الثقافات الأكثر اعترافا بالحاضر، لم تقطع هي الأخرى مع الماضوية.

ما الحاضر؟

جميع الموجودات تؤكد حلوله، لأنها تعيش على وقع حاجياتها من نوم وأكل وجنس، أي على وقع ما تشعر به بين الفينة والفينة، وهي لا تستمر بفضل ذاكرتها أي بفضل ما عرفته أو تعلمته بل بفضل غرائزها.

هو الإحساس بوجودنا الآني المعرّض للفناء.

نحن نعيش إذا في زمنية مبتدعة، لا تؤمن بوجود الحاضر أي بالحياة باعتبارها مغامرة عابرة ومتجددة، لذلك نتنكر لحقيقة الموت.

مقال كاهنة عباس ومقال هيثم حسين في ص12 ينشران كاملين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

نحن سجناء في الماضي (لوحة للفنان فؤاد حمدي)